صور من اتساع معاني التراكيب النحوية في
((الدر المصون))

الدكتور محمد فاضل صالح السامرائي
جامعة الشارقة

مقدمة :

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

مما لاشك فيه أن في اللغة العربية دقةً متناهية في تراكيبها ، وسعة في استعمالها تفتقر إليها كثير من اللغات ، ومن صور سعتها في التعبير أننا نجد أن العبارة الواحدة قد تحتمل أكثر من معنى ، وقد يأتي بها المتكلم لأجل أن يجمع المعاني كلها بأوجز أسلوب، فهو يوجز في التعبير ويوسّع من معناه.

مثال ذلك أنك قد تنيب عن المصدر في الانتصاب على المفعولية المطلقة صفته لأجل أن توسّع معنى العبارة، بمعنى أنك بحذفك هذا جعلت التعبير يحتمل معنًى جديدًا لم يكن ذكر المصدر ليفيده ولا ليحتمله ، وذلك نحو قولك: (مشيت كثيرًا) فكلمة (كثيرًا) يحتمل أن يراد بها الدلالة على المصدر، أي : مشيًا كثيرًا ، ويحتمل أن تكون نائبًا عن الظرف، أي : زمنًا كثيرًا . فإذا أردت المعنيين معًا أي المشي الكثير والزمن الكثير كان ذلك من باب الاتساع في المعنى ، وإذا أردت الحدث وحده قلت: (مشيت مشيًا كثيرًا) ، أو الزمن وحده قلت: (مشيت زمنًا كثيرًا) فالتعبير في هذه الحالة لا يحتمل أكثر من معنى واحد كما هو واضح.

ومن ذلك أن تستعمل اسمًا موصولاً بدلاً من اسم موصول آخر لتتسع دلالة الجملة،مثال ذلك قوله تعالى: { وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ }{هود٧٩}فـ(ما) في هذه الآية تحتمل الموصولية الاسمية، أي : الذي نريده، فيكون العائد محذوفًا، وتحتمل الموصولية الحرفية، أي : لتعلم إرادتنا ، وتحتمل الاستفهامية ، أي : ما الذي نريده ؟ والمعاني الثلاثة مرادة مطلوبة.

ومن التوسع أيضًا أن يحتمل التعبير أن يكون خبريًّا وإنشائيًّا نحو قوله تعالى: { وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ } {الهمزة١} فهذا التعبير يحتمل أن يكون خبريًّا ودعائيًّا،فقد يحتمل أنه أخبر بما سيلاقونه من عقوبة في الآخرة بسبب همزهم ولمزهم، ويحتمل أن يراد الدعاء عليهم بالويل والهلاك،والمعنيان مرادان،فقد دعا عليهم بالعذاب الشديد،كما أنه أخبر بما سيصيبهم ما دعا عليهم به .

وقد لفت نظرَ علمائنا القدامى هذه الظاهرة فذكروها في مصنفاتهم ، فهذا ابن جني المتوفى سنة٣٩٢هـ يقول في كتابه (الخصائص) في (باب اللفظ يرد محتملاً لأمرين أحدهما أقوى من صاحبه أيجازان جميعًا فيه أم يقتصر على الأقوى منهما دون صاحبه؟) : ((اعلم أن المذهب في هذا ونحوه أن يعتقد الأقوى منهما مذهبًا ، ولا يمتنع مع ذلك أن يكون الآخر مرادًا ومقبولاً ، من ذلك قوله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فالقول أن يكون (ناهيا) اسم فاعل من (نهيت) كـ(ساعٍ) من (سعيت) و (سارٍ) من (سريت) ، وقد يجوز مع هذا أن يكون (ناهيا) هنا مصدرًا كالفالج والباطل والعائر والباغز ونحو ذلك مما جاء فيه المصدر على (فاعل) حتى كأنه قال : كفى الشيب للمرء نهيًا وردعًا ، أي : ذا نهي ، فحذف المضاف وعلّقت اللام بما يدل عليه الكلام))[1].

---

[1] الخصائص . ابن جني ٢/٤٩٠ . ٤٩١ . العائر: الرمد ، والباغز: النشاط .

ويقول في (باب توجّه اللفظ الواحد إلى معنيين اثنين): إن اللفظة قد تأتي على صورة ويحتمل أن يراد بها غيرها كقوله :

وغلتْ بهم سجحاء جارية تهوي بهم في لجة البحر

فيحتمل أن يكون (وغلتْ) فعلتْ من التوغّل ، ويحتمل أن تكون الواو عاطفة (من الغليان) [٢].

كما أن هذه الظاهرة قد لفتت نظر عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) فقد ذكرها في أثناء كلامه على قوله تعالى: { وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ }{الأنعام١٠٠} فذكر أن هذا التعبير يفيد معنى أنهم جعلوا الجنَّ شركاءَ لله ، ويفيد معه معنى آخر وهو إنكار أن يكون لله شريك من الجن وغيرهم. ولو قال: (وجعلوا الجن شركاء لله) لما أفاد إنكار أن يكون لله شريك، وإنما أنكر أن يكون الجن شركاء لله، فلو كان غيرهم شريكًا له لم يستنكر ذلك.

ثم يعلّق على ذلك بقوله:((فانظر الآن إلى شرف ما حصل من المعنى بأن قُدّم (الشركاء) واعتبرْه، فإنه ينبّهك لكثير من الأمور ، ويدلّك على عظم شأن النظم ، وتعلَم به كيف يكون الإيجاز به وما صورته ؟ وكيف يزاد في المعنى من غير أن يزاد في اللفظ)) [٣].

وقد رأيت أن هذه الظاهرة جلية في آي الذكر الحكيم ، فالقرآن الكريم قد يذكر تركيبًا بصورة معينة لأجل أن يتسع أكثر من معنى ، وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة.

وقد عرضت هذه الظاهرة من خلال عرض صورها التي توصلت إليها من خلال كتاب (الدر المصون في علوم الكتاب المكنون) للسمين الحلبي المتوفى سنة (٧٥٦هـ).

ومنهجي في البحث أن أذكر الآية القرآنية ثم أتبعها بذكر رأي السمين الحلبي ثم باقي الآراء. وليس من منهجي استقراء الآيات التي تتعلق بكل صورة لئلا يطول بنا البحث.

وقبل أن أبدأ بعرض الصور عرّفت تعريفًا موجزًا بالسمين الحلبي وكتابه الدر المصون .

نسأل الله السداد في الرأي .

والحمد لله رب العالمين

---

[٢] ينظر الخصائص ١٧٢/٣. السجحاء: الطويلة الظهر ، وأراد بها السفينة.

[٣] دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني ٢٨٧ . ٢٨٨.

التعريف بالسمين الحلبي :

شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدايم المعروف بالسمين الحلبي ، مفسّر ، عالم بالعربية والقراءات ، من أهل حلب ، استقرّ واشتهر في القاهرة. لازم أبا حيان إلى أن فاق أقرانه. وأخذ القراءات عن التقي الصائغ ومهر فيها ، وسمع الحديث من يونس الدبوسي ، وولي تدريس القراءات بجامع ابن طولون.

من كتبه (الدر المصون في علوم الكتاب المكنون) في إعراب القرآن ، و(تفسير القرآن) في عشرين مجلدًا ، وشرح الشاطبية في القراءات ، وشرح التسهيل وغير ذلك.

قال الأسنوي في (طبقات الشافعية): كان فقيهًا بارعًا في النحو والقراءات ويتكلم في الأصول ، أديبًا.

مات في جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وسبعمائة[٤].

التعريف بالدر المصون :

وهو من ((أجلّ ما صنّف فيه لأنه جمع العلوم الخمسة: الإعراب والتصريف واللغة والمعاني والبيان. ولذلك قال السيوطي في الإتقان: هو مشتمل على حشو وتطويل . لخّصه السفاقسي فجوّده. انتهى.

وهو وهم منه لأن السفاقسي ما لخّص إعرابه منه ، بل من (البحر) . . . والسمين أيضًا لخّصه من البحر في حياة شيخه أبي حيان وناقشه فيه كثيرًا ، وسماه (الدر المصون في علوم الكتاب المكنون) . وفرغ منه في أواسط رجب سنة أربع وثلاثين وسبعمائة))[٥] .

---

[٤] مصادر الترجمة: طبقات المفسرين . أحمد الأدنه وي ٢٨٧ ، الدرر الكامنة . ابن حجر العسقلاني ٣٦٠/١ ، بغية الوعاة . السيوطي ٢٠٢/١ ، الأعلام . الزركلي ٢٧٤/١.

[٥] كشف الظنون . حاجي خليفة ١٢٢/١ .

صور اتساع معاني التراكيب النحوية:

إن صور اتساع معاني التراكيب النحوية التي يمكن أن نقف عليها في (الدر المصون) كثيرة ، أبرزها ما يأتي :

أولاً : العدول عن تعبير إلى آخر يحتمل أكثر من معنًى وأكثر من وجه إعرابي :

قد يعدل القرآن الكريم من تعبير قطعي ليس له أكثر من معنى وأكثر من وجه إعرابي إلى تعبير آخر يحتمل أكثر من وجه إعرابي وأكثر من معنى ، وذلك نحو قوله تعالى : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا }{التوبة٨٢} فهذا التعبير يحتمل أن يكون المراد منه : فليضحكوا ضحكًا قليلاً وليبكوا بكاءً كثيرًا ، فيكون كل من (قليلاً وكثيرًا) نائبًا عن المصدر، ويحتمل أن يكون المراد : فليضحكوا زمنًا قليلاً وليبكوا زمنًا كثيرًا ، فيكون كل منهما نائبًا عن ظرف الزمان. والمعنيان مرادان .

وما يهمنا هنا هو أن نقف على آيات قرآنية أشار السمين الحلبي في الدر المصون إلى أنها تحتمل أكثر من وجه إعرابي وأكثر من معنى .

من ذلك قوله تعالى : { وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا }{النساء١٦٠} .

ذكر السمين الحلبي أن للفظة (كثيرًا) أكثر من وجه إعرابي ، وبناء على ذلك فإن لها أكثر من معنى ، فهي تحتمل أن تكون مفعولاً به للمصدر ، أي: بصدّهم ناسًا أو فريقًا أو جمعًا كثيرًا. ويحتمل أن تكون منصوبة على المصدرية ، أي: صدًّا كثيرًا. والوجه الثالث أن يكون المراد بـ(كثيرًا) الوقت ، فتكون نائبة عن ظرف الزمان ، والمعنى أنهم يصدون عن سبيل الله وقتًا كثيرًا أو زمانًا كثيرًا[٦].

وقد اقتصر الزمخشري على الإعرابين الأول والثاني وذكر المعنيين اللذين ترتبا عليهما[٧]. لكن الآية .كما نرى . تتسع لتشمل هذه المعاني الثلاثة ، فهم يصدون خلقًا كثيرًا ، ويصدّون صدًّا كثيرًا ، ويصدّون وقتًا كثيرًا. فجمع التعبير القرآني هذه المعاني الثلاثة.

وهذا كقوله تعالى : { وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا }{آل عمران٤١} أي: ذكرًا كثيرًا ووقتًا كثيرًا ، والمعنيان مرادان، فقد أمر الله نبيه زكريا . عليه السلام . أن يذكر ربه ذكرًا كثيرًا وزمنًا كثيرًا .

والجدير بالذكر أن الذكر الكثير ورد بهذا التعبير الاحتمالي لأجل الاتساع في الدلالة في أكثر من موطن ، من ذلك قوله تعالى :{ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا }{الأحزاب٢١} ، وقوله: { وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا }{الشعراء٢٢٧}، وقوله: { كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا }{طه٣٣، ٣٤} إلى غير ذلك من الآيات.

* * *

---

[٦] ينظر الدر المصون ١٥١/٤.

[٧] ينظر الكشاف . الزمخشري ٥٨١/١.

ومن ذلك قوله تعالى: { فَلْيَضْحَكوا قليلاً وَلْيَبْكوا كثيرًا }{التوبة٨٢ } ذكر السمين أن هذا التعبير يحتمل أن المراد منه: فليضحكوا ضحكًا قليلاً وليبكوا بكاءً كثيرًا ، فيكون كل من (قليلاً وكثيرًا) مفعولاً مطلقًا ، ويحتمل أن يكون كل منهما ظرف زمان على معنى: فليضحوا زمنًا قليلاً وليبكوا زمنًا كثيرًا[٨].

والمعنيان مرادان ، فهو بدل أن يقول: فليضحكوا ضحكًا قليلاً زمنًا قليلاً وليبكوا بكاءً كثيرًا زمنًا كثيرًا قال: { فَلْيَضْحَكوا قليلاً وَلْيَبْكوا كثيرًا } فجمع المعنيين معًا.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا }{الرعد١٢}فقال: { خوفًا وطمعًا } لتتسع الدلالة ويتسع الإعراب، فقد ذكر السمين وغيره أن قوله: { خوفًا وطمعًا } يحتملان النصب على الحالية ، أي: خائفين وطامعين ، كما يحتملان النصب على المصدرية ناصبهما محذوف ، أي: تخافون خوفًا وتطمعون طمعًا[٩].

وجوّز أن يكون مفعولاً لأجله، أي: للخوف والطمع[١٠].

وذكر أن الزمخشري لم يجوّز الوجه الأخير فقال: ((ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله ، ذكره أبو البقاء ومنعه الزمخشري))[١١].

والحق أن الزمخشري أجاز ذلك ، لكن على تقدير حذف مضاف ، أي: إرادةَ خوف وطمع ، أو على معنى: إخافةً وإطماعًا. جاء في (الكشاف): (({خوفًا وطمعًا} لا يصح أن يكون مفعولاً لهما ، لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلَّل إلا على تقدير حذف المضاف ، أي : إرادة خوف وطمع ، أو على معنى : إخافةً وإطماعًا))[١٢].

ولم يجعلهما الزمخشري منصوبين على المفعول له من دون تقدير أو تأويل ، لأنه يذهب مذهب جمهور النحاة أن من شروط المفعول له المشاركة في الفاعل ، أي أن يكون فاعل الحدث والمصدر واحدًا نحو قولك : (قمت احترامًا لأبي) ففاعل القيام والاحترام واحد وهو المتكلم ، ولذا اضطرّ إلى التقدير والتأويل.

ويوضّح السمين الحلبي قول الزمخشري المذكور آنفًا فيقول: ((ومنعه الزمخشري بعدم اتحاد الفاعل ، يعني أن فاعل الإراءة[١٣] وهو الله تعالى غير فاعل الخوف والطمع وهو ضمير المخاطبين))[١٤].

---

[٨] ينظر الدر المصون ٩٢/٦.

[٩] ينظر الدر المصون ٣٠/٧، وروح المعاني . الآلوسي ١٦٨/١٣ ، وفتح القدير . الشوكاني ٩٠/٣.وينظر قوله تعالى: { وَادْعوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا } {الأعراف ٥٦}.

[١٠] ينظر الدر المصون ٣٠/٧.

[١١] الدر المصون ٣٠/٧ .

[١٢] الكشاف ٣٥٢/٢.

[١٣] وهو مصدر الفعل الماضي (أرى) الذي مضارعه (يُري).

[١٤] الدر المصون ٣٠/٧ .

وما ذهب إليه الزمخشري وغيره من جمهور النحاة من اشتراط المشاركة في الفاعل ليس أمرًا مجمعًا عليه ، فقد ذهب ابن خروف (ت٦٠٩هـ) إلى عدم اشتراط ذلك ((تمسّكًا بقوله تعالى : { يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا }حيث إن فاعل الإراءة هو الله ، والخوف من المخاطبين))[١٥].

ومن أمثلة عدم المشاركة في الفاعل قوله تعالى : { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ }{القمر١٤} ففاعل الجري السفينة ، وفاعل الجزاء هو الله تعالى[١٦].

يقول الرضي (ت٦٨٦هـ) في شرحه على كافية ابن الحاجب: ((وبعض النحاة لا يشترط تشاركهما في الفاعل، وهو الذي يقوى في ظني ، وإن كان الأغلب هو الأول ، والدليل على جواز عدم التشارك قول أمير المؤمنين علي . رضي الله عنه . في نهج البلاغة: ''فأعطاه الله النظرة استحقاقًا للسخطة واستتمامًا للبلية'' والمستحق للسخطة إبليس، والمعطي للنظرة هو الله تعالى))[١٧].

وبناءً على هذا الرأي الذي ذهب إليه ابن خروف ومال إليه الرضي فإن الإعراب والمعنى يتسعان في آية الرعد ليشملا المفعول لأجله من دون التقدير أو التأويل الذي ذهب إليه الزمخشري ، ويصير المعنى : يريكم البرق لأجل الخوف والطمع .

فالتعبير القرآني في هذه الآية جعل المعنى يتسع ليشمل الحالية والمفعول لأجله . بتقدير أو تأويل أو بدونهما . والمفعولية المطلقة .

ولو قال : (خائفين وطامعين) ما احتمل التعبير غير الحالية ، ولو قال : (للخوف والطمع) ما احتمل غير بيان العلة ، ولو قال : (تخافون خوفًا وتطمعون طمعًا) أو (دعاءَ خوف وطمع) ما احتمل غير المفعولية المطلقة ، فجمع التعبير القرآني هذه المعاني كلها أحسن جمع وأوجزه .

ونحو هذه الآية قوله تعالى: { وَادْعوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا }{الأعراف ٥٦}[١٨].

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: { قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً }{إبراهيم٣١} فقوله : { سرًّا وعلانيةً } يحتمل أن يكون على معنى : مسرّين ومعلنين، فيكونان منصوبين على الحالية، أو على معنى: وقتَي سر وعلانية ، فيكونان منصوبين على الظرفية ، أو على معنى: إنفاق سر وإنفاق علانية، فيكونان منصوبين على المصدرية [١٩].

---

[١٥] حاشية الخضري على شرح ابن عقيل . محمد الخضري الشافعي ٤٣٩/١ ، وينظر شرح التصريح على التوضيح . خالد الأزهري ٣٣٥/١ ، وحاشية الصبان على شرح الأشموني . محمد علي الصبان ١٢٣/٢.

[١٦] ينظر معاني النحو . الدكتور فاضل صالح السامرائي ٦٥٥/٢.

[١٧] شرح الكافية في النحو . رضي الدين الإستراباذي ٢٠٩/١.

[١٨] ينظر الدر المصون ٣٤٤/٥ .

[١٩] الدر المصون ١٠٧/٧، وينظر الكشاف ٣٧٨/٢ ، ومفاتيح الغيب المعروف بـ(تفسير الرازي)١٣٢/١٩ ، وروح المعاني ٣٢٠/١٣.

وهذه المعاني كلها مرادة ، فإن الله تعالى أمرنا أن ننفق مسرّين ومعلنين ، وأن ننفق وقتَي السر والعلانية ، وأن ننفق إنفاق سر وإنفاق علانية ، فجاءت هذه المعاني كلها في هذا التعبير القصير ، وليس هناك أي تعبير آخر يحتمل هذه المعاني كلها .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : { وَاتَّقُواْ يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا }{البقرة٤٨} فكلمة (شيئًا) يحتمل أن تكون منصوبة على المصدرية ، أي: شيئًا من الجزاء ، لأن الجزاء شيء . ويجوز أن تكون مفعولاً به، على أن (تجزي) بمعنى (تقضي)، أي: لا تقضي نفس عن غيرها شيئًا من الحقوق[٢٠].

ونحوه قوله تعالى : { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا }{مريم٤٢} فإن (({ شيئًا } يحتمل وجهين، أحدهما: أن يكون في موضع المصدر ، أي : شيئًا من الإغناء . . . والثاني أن يكون مفعولاً به من قولهم: أغنِ عني وجهك)) [٢١].

ولا داعي لحجر (شيئًا) على المفعولية المطلقة في آية البقرة كما ذهب إلى ذلك أبو الفضل الآلوسي (ت١٢٧٠هـ)،حيث قال:(({شيئًا} مفعول مطلق لا غير،والمعنى:لا تغني نفس عن نفس شيئًا من الإغناء)) [٢٢]فإن المعنى .كما رأينا . يتّسع ليشمل المفعول به أيضًا.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: { اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا }{سبأ١٣}، فقد ذكر السمين الحلبي أكثر من وجه إعرابي لكلمة (شكرًا) ، لكل وجه معنى منها :

أولاً: أن يكون مفعولاً مطلقًا منصوبًا بفعل مقدّر من لفظه ، كأنه قيل : اشكروا شكرًا بعملكم، أو اعملوا عمل شكر.

ثانيًا: أن يكون مفعولاً لأجله ، أي : لأجل الشكر .

ثالثًا : أن يكون مصدرًا واقعًا موقع الحال ، أي: شاكرين.

رابعًا: أن يكون مفعولاً به ، أي: اعملوا الطاعة[٢٣].

وقال الرازي (ت٦٠٦هـ) والبيضاوي (ت٧٩١هـ) : إنه يحتمل ((أن يكون مفعولاً به . . . كما قال تعالى: {واعملوا صالحًا}{سبأ١١} لأن الشكر صالح)) [٢٤].

ولعل الأوجه الأولى يحتملها التعبير ، فقد أمر الله آل داود أن يعملوا لله ابتغاءً لمرضاته ويعبدوه على وجه الشكر لنعمائه ، وأن يعملوا شاكرين لله ، وأن يشكروا الله شكرًا .

---

[٢٠] الدر المصون ٣٣٧/١.

[٢١] الكشاف ٥١١/٣.

[٢٢] روح المعاني ٣٩٨/١.

[٢٣] الدر المصون ١٦٣/٩.

[٢٤] تفسير الرازي ٢٥٠/٢٥ ، وينظر تفسير البيضاوي المعروف بـ(أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ٣٩٤ . ٣٩٥.

وأما الوجه الذي ذكره الرازي والبيضاوي ففيه تكلف،لأن الله تعالى أمر داود . عليه السلام . وآله أمرين،أحدهما قوله: { واعملوا صالحًا } والآخر قوله : { اعملوا آل داود شكرًا } ، فمرة أمرهم بالعمل الصالح ، ومرة أمرهم بالشكر ، ولو كانت كلمة (شكرًا) مفعولاً به بحجة أن الشكر صالح لأفاد التعبير أن الله تعالى لم يأمر داود وآله إلا بأمر واحد وهو عمل الصالحات ، وهذا بخلاف المعنى المقصود .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ }{غافر٨٢}.

فمن المعروف عند النحاة أن (ما) تحتمل أكثر من معنى ، فهي تحتمل الموصولية والنفي والاستفهامية والمصدرية في كثير من التعبيرات.

وعلى هذا فـ(ما) لها عدة احتمالات ذكرها السمين، ففي قوله تعالى : { فما أغنى } يحتمل أن تكون (ما) نافية ، أي أن ما كانوا يكسبونه لم يغنِ عنهم ، ويحتمل أن تكون استفهامية ، أي : أي شيء أغنى عنهم الذي كانوا يكسبونه ؟ و (ما)في قوله: { ما كانوا يكسبون } تحتمل الموصولية ، بمعنى: الذي كانوا يكسبونه، والعائد محذوف، وتحتمل المصدرية، أي : فما أغنى عنهم كسبهم ، سواء كانت (ما) الأولى استفهامية أم نافية[٢٥].

وهذا الكلام ينطبق على قوله تعالى: { مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } {المسد٢} فـ(ما) في (ما أغنى) يحتمل أن تكون نافية ، بمعنى أن ماله لم يغن عنه ، ويحتمل أن تكون استفهامية ، أي: أي شيء أغنى عنه ماله ؟ و(ما) في قوله: (وما كسب) تحتمل الموصولية ، بمعنى: ما كسبه ، والعائد محذوف ، وتحتمل الاستفهام ، بمعنى: ما الذي كسبه؟ وتحتمل المصدرية ، أي: ما أغنى عنه ماله وكسْبه ، سواء جعلت (ما) الأولى استفهامية أم نافية[٢٦].

* * *

ومن ذلك قوله تعالى مخبرًا عن الساعة : { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ }{الحج٢} فإن (ما) يحتمل أن تكون اسمًا موصولاً بمعنى (الذي)، فيكون المعنى: تذهل كل مرضعة عن الذي أرضعته وهو الطفل ، ويحتمل أن تكون حرفًا مصدريًّا فيكون المعنى : تذهل كل مرضعة عن إرضاعها[٢٧].

ونرى أن التعبير يحتمل كلا المعنيين ، فإن المرضعة في هذا اليوم تذهل عن الطفل الذي ترضعه ، وتذهل عن الحدث وهو الإرضاع .

ولو قال : (عما أرضعته) لكانت (ما) اسمًا موصولاً بسبب العائد ، ولكان المعنى أنها تذهل عن الطفل الذي بين يديها ، ولكن قد لا يصل الأمر إلى أنها تذهل عن الحدث نفسه . ولو قال: (عن إرضاعها) لأفاد المعنى أنها

---

[٢٥] ينظر الدر المصون ٥٠٢/٩ .

[٢٦] م.ن ١١/ ١٤٣. ١٤٤ .

[٢٧] م.ن ٢٢٤/٨ ، وينظر تفسير الرازي ٥/٢٣.

تذهل عن الحدث وهو الإرضاع ، ولكن لا يصل الأمر إلى أنها تذهل عن الطفل الذي بين يديها ، فقد تذهل عن إرضاعها ولكن لا تذهل عن طفلها .

فلو قالها على أي وجه من الوجهين اللذين ذكرتهما آنفًا ما تبين لنا مدى ذهول المرضعة عند قيام الساعة بمقدار ما صوّره لنا التعبير القرآني .

* * *

ومثل ذلك قوله تعالى: { وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }{هود١٦} فإن (ما) في قوله: { ما صنعوا } يحتمل أن تكون اسمًا موصولاً ، أي : حبط في الآخرة العمل الذي صنعوه في الدنيا ، ويحتمل أن تكون حرفًا مصدريًّا ، فيكون المعنى : وحبط في الآخرة صنعهم[٢٨].

وهذا الكلام ينطبق على قوله تعالى: { وباطل ما كانوا يعملون } فإذا كانت (ما) اسمًا موصولاً كان المعنى: باطل ما كانوا يعملونه، أي : باطل العمل الذي كانوا يعملونه ،وإذا كانت حرفًا مصدريًّا كان المعنى: باطل عملهم.

وشواهد (ما) المحتملة للموصولية والمصدرية في القرآن كثير، من ذلك قوله تعالى: { لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ }{الكهف٧٣} فقوله: (بما نسيت) يحتمل لأن يراد به بالذي نسيته أو بنسياني[٢٩]. وقوله: { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى }{طه١٣} أي: للذي يوحى، أو للوحي[٣٠].وقوله: { يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى }{النازعات٣٥}[٣١] إلى غير ذلك من الآيات.

ثانيًا : آيات تحتمل أكثر من معنى ، غير أنه قد تتعين الدلالة بالتعليق:

قد يكون لبعض الآيات أكثر من معنى ، لكن المعنى يتعين على حسب التعليق، من ذلك مثلاً قوله تعالى: {فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا }{القصص٢٥} فإذا علّقت قوله: { على استحياء } بـ{ تمشي } كان المعنى أن مشيها كان على استحياء ، وإذا علّقته بـ(قالت) كان المعنى أن قولها كان على استحياء.وهذا التعبير يحتمل الأمرين معًا ، فإن مشيها وقولها كانا على استحياء.

ومما ذكره السمين الحلبي قوله تعالى: { قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ}{المائدة٢٦} فإن الظرف { أربعين سنة } يمكن أن يتعلق بـ{ محرمة } أو بـ{ يتيهون }. فإذا علّقته بـ{ محرمة } كان المعنى أن التحريم مقيّد بهذه المدة ، وأخبر أنهم يتيهون ولم يبيّن مدة التيه ، وإذا علّقته بـ{ يتيهون } كان المعنى أنها محرمة عليهم أبدًا وأن التيه أربعون سنة[٣٢].

---

[٢٨] الدر المصون ٦/٢٩٧ . ٢٩٨ .

[٢٩] الكشاف ٢/٣٩٤.

[٣٠] م.ن ٢/٣٢.

[٣١] م.ن ٤/٢١٥ .

[٣٢] الدر المصون ٤/٢٣٦ .

* * *

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى مخاطبًا موسى وأخاه هارون: { سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ }{القصص٣٥} فقد ذكر السمين أن { بآياتنا } لها أكثر من وجه للتعليق ، ويتغير المدلول بتغير التعليق، فقد يجوز أن تكون متعلقة بمحذوف، أي: اذهبا بآياتنا،على نحو ما قدّر في قوله تعالى في موطن آخر: { وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ }{النمل١٢} ، أي: اذهبا في تسع آيات[٣٣].وقد صرح بذلك المحذوف في سورة الشعراء فقال تعالى: { قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ . ١٥}. ويجوز أن تعلّق بـ{ نجعل لكما سلطانًا } أي : نسلطكما عليهم بآياتنا حتى تكون رهبتهم منكما آية من آياتنا[٣٤]. ويجوز أن تتعلق بـ{ لا يصلون } فيكون المعنى أنهم لا يصلون إليهما بسبب الآيات[٣٥].

وهناك وجه رابع للتعليق ، وهو أن تكون معلّقة بالغلبة ، فيكون المعنى أنهم غالبون بالآيات وهي المعجزات التي أيدهم الله بها، وهو أَوْلى ، لأنهم غَلبوا بالآيات. والوقف . على هذا المعنى . إنما يكون على قوله: { إليكما } ويبدأ بقوله : { بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ }وهو الراجح[٣٦].

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم }{البقرة١٠٩}،فإن قوله : { من عند أنفسهم } له أكثر من وجه للتعليق ،فيجوز أن يعلّق بـ{ ودّ }، ويجوز أن يعلق بـ{ حسدًا }.وقد ذكر السمين كلا الوجهين وبيّن المعنى الذي يترتب على كل وجه،فذكر أن التعليق إذا كان بـ{ ودّ } فالمعنى أنهم ودّوا ذلك من قبَل شهواتهم لا من قبَل التدين،وإذا كان التعليق بـ{حسدًا } كان المعنى أن الحسد منبعث من أصل أنفسهم وشهواتهم[٣٧].

ثالثًا : تعدد احتمالات مرجع الضمير:

فقد تتعدد دلالة الجملة ويتّسع معناها على حسب تعدد احتمالات مرجع الضمير، من ذلك قوله تعالى: { فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ }{البقرة٢٣} فقد ذكر السمين أن الضمير في { مثله } قد يعود على القرآن أو على

---

[٣٣] الكشاف ١٧٦/٣ ، وينظر التحرير والتنوير . ابن عاشور ٥٤/٢٠.

[٣٤] الدر المصون ٦٧٨/٨ وينظر الكشاف ١٧٦/٣ ، والتحرير والتنوير ٥٤/٢٠ .

[٣٥] ينظر الكشاف ١٧٦/٣.

[٣٦] الدر المصون ٦٧٨/٨ ، وينظر جامع البيان . ابن جرير الطبري ٣٥/٦ ، والبرهان في علوم القرآن . الزركشي ٣٦٤/١.

[٣٧] الدر المصون ٦٧/٢ . ٦٨ وينظر الكشاف ٣٠٤/١ ، وتفسير الرازي ٢٤٤/٣ ، وتفسير البيضاوي ٢٣.

الرسول ، فإذا عاد على القرآن كان المعنى : فائتوا بسورة مما هو على صفته في فصاحته وإخباره بالغيوب ، وعلوّ الطبقة في حسن النظم. وإذا عاد على الرسول كان المعنى : فائتوا بسورة كائنة من رجل مثل عبدنا[٣٨]. ويحتمل التعبير كلا المعنيين.

* * *

ومنه قوله تعالى : { حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا }{الأنعام٣١} فالضمير في { فيها } يحتمل أن يعود على الحياة الدنيا وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة. وقد يعود على الساعة، على معنى: قصّرنا في شأنها وفي الإيمان بها[٣٩].

* * *

ومنه أيضًا قوله تعالى: { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيّبُ وَالْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ }{فاطر١٠} فضمير الفاعل في (يرفعه) يحتمل أن يعود على الله تعالى ، بمعنى أن العمل الصالح يرفعه الله إليه ، ويحتمل أن يعود على العمل فيكون المعنى أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب[٤٠].

رابعًا : آيات تحتمل في تأليفها أكثر من معنى يصح أن تراد جميعًا في آن واحد :

هناك آيات قرآنية يعطي تأليفها ونظمها أكثر من معنى ، وهذه المعاني يصح أن تراد جميعًا في آن واحد ، من ذلك قوله تعالى: { ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ }{البقرة٢}فيصح أن يكون {الكتاب} خبرًا، و {لا ريب فيه} خبرًا ثانيًا .

ويحتمل أن يكون { الكتاب } بدلاً من { ذلك } ، و { لا ريب فيه } هو الخبر،والمعنيان صحيحان يمكن أن يرادا معًا.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى:{ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً }{ص٢٣} فيجوز أن يكون { أخي } خبر (إنّ) ، و { له تسع وتسعون نعجةً } خبرًا ثانيًا ، وسيكون المعنى حينئذ أنه يخبره أنه أخوه وأن له تسعًا وتسعين نعجة .

ويحتمل أن يكون { أخي } بدلاً ، و { له تسع وتسعون نعجةً } خبر (إنّ) ، والمعنيان مرادان معًا.

وقد كان للسمين الحلبي وقفات على هذا النوع من الآيات، منها قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: { قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي }{المائدة٢٥} فهذا التعبير يحتمل مدلولين :

الأول:أن يكون المراد أن موسى لا يملك إلا نفسه ولا يملك إلا أخاه ،وذلك إذا عطف { أخي } على { نفسي }.

---

[٣٨] الدر المصون ٢٠٠/١ .

[٣٩] م.ن ٥٩٦/٤ .

[٤٠] ينظر الدر المصون ٢١٨/٩.

والثاني:أن موسى لا يملك إلا نفسه ، وأخاه لا يملك إلا نفسه[٤١]، وذلك إذا كان { أخي } مبتدأً خبره محذوف تقديره (كذلك) .

ولو كان التعبير على غير هذه الصورة ما احتمل كلا المعنيين ، فلو قال: (إني وأخي لا نملك إلا أنفسنا) ما احتمل إلا المدلول الثاني . ولو قال: (إني لا أملك إلا نفسي و إلا أخي) ما احتمل إلا المدلول الأول ، فجاء التعبير على هذه الصورة المذكورة في القرآن ليتسع المعنى فيشمل كلا المدلولين .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ }{فصلت٣٤}.

يذكر السمين المعاني المحتملة لهذه الآية فيقول : ((قوله: (ولا السيّئة) في (لا) هذه وجهان: أحدهما: أنها زائدة للتوكيد . . . والثاني: أنها مؤسسة غير مؤكدة ، إذ المراد بالحسنة والسيئة الجنس ، أي: لا تستوي الحسنات في أنفسها فإنها متفاوتة ، ولا تستوي السيئات أيضًا ، فربّ واحدة أعظم من الأخرى))[٤٢].

ومعنى هذا أن (لا) الثانية يحتمل أن تكون زائدة مؤكدة ، بمعنى : لا تستوي الحسنة والسيئة . ويحتمل أن يكون المراد أن الحسنة لا تستوي فيما بينها ، فبعض الحسنات أحسن من بعض ، وكذلك السيّئة لا تستوي ، فبعض السيّئات أعظم من بعض ، فبذكر (لا) الثانية احتمل التعبير أكثر من معنى وهي : ١. أنه لا تستوي الحسنة والسيئة. ٢ . أن الحسنة لا تستوي. ٣. أن السيئة لا تستوي.

ولو حذف (لا) فقال : (ولا تستوي الحسنة والسيئة) لم يكن لها إلا معنى واحد وهو أن الحسنة لا تستوي مع السيّئة.

ونحوه قوله تعالى : { وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ . وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاء وَلا الأَمْوَاتُ }{فاطر١٩ . ٢٢}.

فيحتمل أن يكون المعنى أن الأعمى والبصير لا يستويان ، وأن الظلمات والنور لا تستوي ، وكذلك لا يستوي الظل و الحرور .

ويحتمل أن يكون المعنى أن الظلمات لا تستوي ، فبعضها أظلم من بعض ، والنور لا يستوي فبعضه أنور من بعض . . . وكذلك ما بعده[٤٣].

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : { أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }{الملك١٤} ، حيث إن معنى الآية يتوقف على إعراب (مَن)، فإذا كان فاعلاً كان المعنى : ألا يعلم الخالق خلقه ؟ وإذا كان مفعولاً فإن المعنى : ألا يعلم الله من خلق ؟ أي: ألا يعلم مخلوقه ؟[٤٤] .

---

[٤١] م.ن ٤/٢٣٤ . ٢٣٥ .

[٤٢] م.ن ٩/٥٢٧ .

[٤٣] الدر المصون ٩/٢٢٣ ، وينظر الجملة العربية والمعنى . فاضل صالح السامرائي ٢٠١.

خامسًا : التضمين:

وهو إشراب لفظ معنى لفظ آخر فيعطونه حكمه. وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدّى كلمتين[٤٥]. يقول الزمخشري في قوله تعالى : { وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ }{الكهف٢٨}: ((يقال :عداه إذا جاوزه ، ومنه قولهم: (عدا طوره) . . . وإنما عدّي بـ(عن) لتضمين (عدا) معنى (نبا) و (علا) في قولك : (نبَتْ عنه عينك) و (علَتْ عنه عينه) إذا اقتحمته ولم تعلق به .

فإن قلت : أي غرض في هذا التضمين ؟ وهلاّ قيل : ولا تعدُهم عيناك ، أو : لا تعلُ عيناك عنهم ؟ قلت : الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذّ ، ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم ؟ ونحوه قوله تعالى : { وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ }{النساء٢} أي : ولا تضمّوها إليها آكلين لها))[٤٦].

ويعرّفه السيد الشريف الجرجاني بقوله : ((والتضمين أن يقصد بلفظ فعل معناه الحقيقي ويلاحظ معه معنى فعل آخر يناسبه ويدل عليه بذكر شيء من متعلقاته))[٤٧].

ثم يبين فائدته فيقول: إن ((فائدة التضمين إعطاء مجموع المعنيين ، فالفعلان مقصودان معًا قصدًا وتبعًا))[٤٨].

مما سبق يتبين لنا أن فائدة التضمين هو التوسع في المعنى ((وذلك أن يؤتى بفعل ، ثم يؤتى معه بحرف لا يتعدّى معه ذلك الفعل ، وإنما يتعدّى مع فعل آخر ، فيكسب معنى الفعل المذكور والمقدّر))[٤٩].

بعد هذه المقدمة التي أوضحنا فيها معنى التضمين وذكرنا فائدته نعود إلى الآيات القرآنية لنرى كيف يوسّع التضمين المعنى . ويهمنا أن نقف على ما وقف عليه السمين الحلبي في الدر المصون .

من ذلك قوله تعالى : { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ }{البقرة١٨٧}فقد عدّى الرفث بـ(إلى) . والأصل فيه أن يتعدّى بالباء . وذلك لتضمينه معنى الإفضاء[٥٠]،والإفضاء يتعدّى بـ(إلى)، قال تعالى: { وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ }{النساء٢١}. يقول الراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ) : ((الرفث: كلام متضمن لما يُستقبَح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه ، وجُعِل كناية عن الجماع في قوله تعالى: { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ

---

[٤٤] الدر المصون ٣٨٦/١٠ ، وينظر الكشاف ١٣٧/٤، والمحرر الوجيز . ابن عطية ٣٤٠/٥ . ٣٤١ ، والتحرير والتنوير ٢٩ /٢٨ . ٢٩.

[٤٥] ينظر مغني اللبيب . ابن هشام ٨٩٧/٢ .

[٤٦] الكشاف ٤٨١/٢.

[٤٧] حاشية الجرجاني على الكشاف ١٢٦/١.

[٤٨] م.ن .

[٤٩] الجملة العربية والمعنى ١٨٥.

[٥٠] الدر المصون ٢٩٣/٢.

} تنبيهًا على جواز دعائهن إلى ذلك ومكالمتهن فيه.وعدّي بـ(إلى) لتضمنه معنى الإفضاء))[٥١]. فجمع بين جواز الكلام المتضمن ذكر الجماع وبين الإفضاء .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: { لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ }{البقرة٢٢٦} فمعنى { يؤلون } : يقسمون ، أو يحلفون ، والأصل أن نقول : حلف فلان على كذا ، ولكنه عدل عن لفظة (على) إلى لفظة (من) لأنه ضمّن معنى البعد،فكأنه قيل: يبعدون من نسائهم مؤلين أو مقسمين[٥٢].فجمع بين معنيي الحلف والبعد .

وقد ((يضمن الإيلاء معنى الامتناع فيعدّى بـ(من) فكأنه قيل: للذين يمتنعون بالإيلاء من نسائهم))[٥٣].

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : { وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ }{النساء٢} فضمّن (تأكلوا) معنى (تضمّوا) فلذلك عدّي بـ(إلى) ، أي : ((ولا تضمّوها إلى أموالكم آكلين))[٥٤]. فجمع بين معنيي الأكل والضم.

* * *

ومنه قوله تعالى : { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ }{النور٦٣} فالفعل (خالف) يتعدى بنفسه فتقول : (خالف أمره) ، قال تعالى : { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ }{هود٨٨} ولكنه عدّي هنا بـ(عن) لتضمينه معنى يصدون عن أمره أو يعرضون عنه أو يعدلون عنه[٥٥].

* * *

ومنه قوله تعالى: { سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ }{المعارج١}فعدّي الفعل (سأل) بالباء لتضمينه معنى (دعا)، ((كما تقول: (دعوت بكذا) ، والمعنى : دعا داعٍ بعذاب))[٥٦] وجاء في الكشاف: ((فعدّي تعديته،كأنه قيل:دعا داعٍ بعذاب واقع،من قولك:دعا بكذا . . . ومنه قوله: { يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ }{الدخان ٥٥}))[٥٧].

ويتضح هذا المعنى من سبب نزول الآية ، فقد روي أن النضر بن الحارث قال: { اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }{الأنفال٣٢}فأنزل الله تعالى:{ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ } [٥٨] أي دعا بالعذاب لنفسه وطلبه لها .

---

[٥١] مفردات ألفاظ القرآن . الراغب الأصبهاني ٢٠٥.

[٥٢] الدر المصون ٤٣٣/٢، وينظر الكشاف ٢٦٣/١ ، وتفسير الرازي ٨٧/٦ ، والبحر المحيط ٤٤٧/٢ ، وروح المعاني ١٩٥/٢.

[٥٣] البحر المحيط ٤٤٧/٢.

[٥٤] ينظر الدر المصون ٥٥٧/٣ ، والكشاف ٤٩٥/١ ، والتحرير والتنوير ١٤/٤.

[٥٥] ينظر الدر المصون ٤٤٩/٨ ، والكشاف ٧٩/٣ ، والبحر المحيط ٧٦/٨.

[٥٦] الدر المصون ٤٤٥/١٠ .

[٥٧] الكشاف ٥٦١/٤.

[٥٨] الجامع لأحكام القرآن . القرطبي٢٧٨/١٨.

سادسًا : الحذف الذي يؤدي إلى إطلاق الدلالة وتوسعها :

ينقسم الحذف قسمين : قسم لا يؤدي إلى توسع في المعنى ،وهو ما يتعين فيه المحذوف، نحو قوله تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا }{فصلت٤٦} أي : من عمل صالحًا فعمله لنفسه ومن أساء فإساءته عليها . ونحو قوله تعالى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }{الزخرف٨٧} أي : الله خلقنا . وقسم يؤدي إلى توسع فيها،وذلك إذا لم يتعين فيه المحذوف ، بل يحتمل عدة تقديرات يحتملها سياق الآية . وما يهمنا هنا هو القسم الثاني .

من ذلك قوله تعالى : { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ }{النساء١٢٧} فقوله: { وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ } يحتمل:في أن تنكحوهنّ لجمالهنّ ومالهنّ ، و: عن أن تنكحوهنّ لدمامتهنّ وفقرهنّ [٥٩]. ولو ذكر الحرف المحذوف فقال: (في أن تنكحوهنّ) لكان المعنى الرغبة في نكاحهن، ولو ذكره فقال: (عن أن تنكحوهنّ) لاقتصر المعنى على الرغبة عن نكاحهنّ والعزوف عنه ، ولكن عندما حُذف حرف الجر ولم يعيَّن توسّع المعنى ليحتمل الرغبة في نكاحهن ويحتمل الرغبة عنه.

* * *

ومما ذكره السمين أيضًا قوله تعالى : { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ }{الحجر٩٤} فذكر أنه يحتمل أن يراد بهذا التعبير: فاصدع بما تؤمر به من الشرائع ، أو فاصدع بأمرك[٦٠]. فإذا كانت (ما) اسمًا موصولاً كان المعنى : فاصدع بما تؤمر به من الشرائع والأحكام ، وإذا كانت (ما) مصدرية كان المعنى : فاصدع بأمرك ، والمعنيان مرادان .

ولو ذكر العائد فقال : (بما تؤمر به) لكانت (ما) اسمًا موصولاً فحسب ، فبحذف العائد توسع المعنى ليحتمل الموصولية والمصدرية .

* * *

ومنه قوله تعالى: { وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا }{الأعراف٤٤} فقد قال: { ما وعدنا ربنا } بذكر مفعول الفعل،ثم قال بعدها: { ما وعد ربكم حقًّا } ولم يقل (ما وعدكم) فلم يذكر المفعول. نقل السمين رأي الزمخشري وهو أن سبب ذلك هو أن الكافرين كانوا منكرين لأصل الوعد والوعيد وليسوا منكرين لما وعدهم به فقط فكأنه قال:هل وجدتم وعد ربكم حقًّا؟جاء في (الكشاف): ((فإن قلت: هلا قيل: ما وعدكم ربكم كما قيل ما وعدنا ربنا؟

---

[٥٩] الدر المصون ١٠٦/٤ .

[٦٠] الدر المصون ١٨٤/٧ ، وينظر الكشاف ٣٩٩/٢.

قلت: حذف ذلك تخفيفًا لدلالة (وعدنا) عليه، ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع ولأن الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك))[٦١].

ومن الأمثلة الأخرى التي يؤدي الحذف فيها إلى التوسع في المعنى ما ورد ذكره من حذف المصدر وإبقاء صفته نحو قوله تعالى: { وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا }{النساء١٦٠}وقوله: { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا }{التوبة٨٢}.

سابعًا : التقديم والتأخير :

قد يفيد التقديم والتأخير توسعًا في الدلالة.ومن أمثلة ذلك ما نقله السمين عن الزمخشري في قوله تعالى: { وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ }{الأنعام١٠٠}، فقد بيّن الزمخشري فائدة تقديم (شركاء) على (الجن) فقال: ((فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك سواء كان ملكًا أم جنّيًا أم إنسيًّا أم غير ذلك ، ولذلك قدّم اسم الله على الشركاء))[٦٢]. بمعنى أن الاستعظام ليس من مجرد جعل الجن شركاء لله، بل من اتخاذ مبدأ الشركاء سواء أكانوا جنًّا أم غير جن، وهذه الفائدة لا نجدها لو قال: (وجعلوا الجن شركاء لله).

وقد ذكرنا إشارة عبد القاهر الجرجاني إلى هذه الفائدة في مقدمة البحث عندما ذكرنا إشارته إلى ظاهرة الزيادة في المعنى من غير أن يزاد في اللفظ.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }{المائدة٦٩}.

في هذه الآية تقدم ذكر الصابئين على النصارى. نقل السمين الحلبي عن الزمخشري أن سبب ذلك هو التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صحّ منهم الإيمان والعمل الصالح من كونهم أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدّهم غيًّا ، وما سُمّوا صابئين إلا لأنهم صبأوا عن الأديان كلها ، أي: خرجوا. وعلى هذا فغيرهم أولى بذلك[٦٣].

ويبين ابن الزبير الغرناطي (ت٧٠٨هـ) سبب تقديم الصابئين على النصارى في هذه الآية وتأخيرهم عنهم في قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }{البقرة٦٢} فيذكر أن سبب تأخير الصابئين في آية البقرة هو أنهم ليسوا أهل كتاب ، بخلاف باقي الأصناف فإنهم استحقوا التقديم على (الصابئين) لأنهم أهل كتاب. و((قدّم ذكر الصابئين في سورة المائدة زيادة بيان للغرض المذكور من أنه لا ترتيب في الغاية الأخروية إلا بنظر آخر ، لا

---

[٦١] الكشاف ٢/٨٠. ٨١ ، وينظر الدر المصون ٥/٣٢٥. ٣٢٦ .

[٦٢] الكشاف ٢/٤٠ ، وينظر الدر المصون ٥/٨٣ .

[٦٣] الدر المصون ٤/٣٥٤. ٣٥٥ ، وينظر الكشاف ٢/٦٣١. ٦٣٢.

بحسب الدنيوي والاشتراك فيما قبل الموافاة، بل المستجيبُ المؤمن من الكلّ مخَلَّصٌ والمكذّب متورط ، ثم مراتب الجزاء بحسب الأعمال)) [٦٤].

ثم يقول: إنه لم يقدم ذكر الصابئين على الباقين لمكانة المؤمنين وشرفهم ، ولم يقدم ذكرهم على اليهود لأن اليهود كان يفترض أن يكونوا أول المستجيبين ، أما النصارى فهم ((أقرب إلى الصابئين من حيث التثليث وسوء نظرهم في ذلك وقصورهم. ثم إنهم لم يجرِ لهم ذكر فيما تقدم هذه الآية بخلاف يهود ، فإن من هذه الجهة تقديم يهود عليهم ، وإن كان يهود شر الطائفتين)) [٦٥].

ويقول الخطيب الإسكافي: إن الله تعالى رتّب الطوائف في آية البقرة ((على ما رتبهم عليه في بعثة الرسالة ، ثم أتى بذكر الصابئين وهم الذين لا يثبتون على دين وينتقلون من ملة إلى ملة ولا كتابَ لهم كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في قوله: { أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا }{الأنعام١٥٦} فوجب أن يكونوا متأخرين عن أهل الكتاب. وأما بعد الترتيب فترتيبهم في سورة المائدة . . . ترتيب ثانٍ،فالأول على ترتيب الكتب ، والثاني على ترتيب الأزمنة ، لأن (الصابئين) وإن كانوا متأخرين على (النصارى) بأنهم لا كتاب لهم ، فإنهم مقدَّمون عليهم بكونهم قبلهم لأنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام)) [٦٦].

ولي ملاحظتان على كلام الإسكافي:

الملاحظة الأولى: يقول: إن الله تعالى رتّب الطوائف في آية البقرة على ما رتّبهم عليه في بعثة الرسالة ، والواضح أنه افتتح بذكر الذين آمنوا وجعلهم أول الطوائف ، والمراد بالذين آمنوا هم المؤمنون بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين[٦٧] ، ورسالته آخر الرسالات وهو خاتم النبيين.

والملاحظة الثانية: يقول: إن ترتيب ذكرهم في آية البقرة على حسب ترتيب الكتب ، وفي آية المائدة على حسب ترتيب الأزمنة ولم يبيّن سبب ذلك ، فقوله هذا قد يثير سؤالاً هو: لماذا كان ترتيب ذكرهم في آية البقرة على حسب ترتيب الكتب وفي آية المائدة على حسب ترتيب الأزمنة ولم يكن العكس مثلاً ؟

ويذكر الدكتور فاضل السامرائي أن الكلام فيما بعد آية المائدة على ((ذم عقيدة النصارى وتسفيه عقيدة التثليث ، فكأن النصارى لم يؤمنوا بالله حقًّا ، وإنما هم من صنف المشركين ، ويبدأ الكلام عليهم بقوله تعالى: { لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ

---

[٦٤] ملاك التأويل . ابن الزبير الغرناطي ٧٦/١.

[٦٥] م.ن ٧٦/١ . ٧٧.

[٦٦] درة التنزيل . الخطيب الإسكافي٢١.

[٦٧] ينظر تفسير الرازي ١١٣/٢ ، وتفسير البيضاوي ١،٣٣٣ ، وفتح القدير ١٤١/١ ، وروح المعاني ٤٤٠/١.

الرُّسُلُ . . .}{المائدة ٧٢ . ٧٧} فقدم الصابئين عليهم وهو المناسب للمقام ، وليس نحو هذا موجودًا في آية البقرة فجرَت الآية على نسق واحد فأخّر الصابئين وجعلهم في مكانهم بعد الملل))[٦٨].

ثامنًا : العطف بين متغايرين :

قد يقع عطف بين متغايرين ، بمعنى أنه يعطف في ظاهر الأمر الاسم أو الفعل على ما يغايره في الإعراب مع أنه يصح إجراؤه عليه ، أو أن يكون العطف على غير مذكور في الكلام أو على المعنى ، وغير ذلك من مظاهر الاختلاف في العطف ، وذلك . في الغالب . يفيد اتساع معنى الجملة.

وقد وقف السمين على آيات عديدة فيها ظاهرة العطف بين متغايرين، وذكر ما تفيده هذه الظاهرة من اتساع في دلالة الآية. وسأقف على نماذج مما ذكره .

أولاً . عطف الاسم أو الفعل على ما يغايره في الإعراب مع أنه يصح إجراؤه عليه:

قد يقع العطف بين اسمين أو فعلين متغايرين،فيعطف في ظاهر الأمر الاسم المنصوب على المرفوع ، أو المرفوع على المنصوب ، أو الفعل المجزوم على المنصوب أو غير ذلك من الصور.

فمن عطف الاسم المنصوب على المرفوع قوله تعالى: { وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ }{البقرة١٧٧} بعطف { الصابرين } على { الموفون }.

يرى السمين أن كلمة (الصابرين) نصبت على الاختصاص والمدح إظهارًا لفضل الصبر في سائر الأعمال[٦٩] .

وجاء في (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) أن ((تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور ومزيد اهتمام بشأنه))[٧٠] .

وجاء فيه أيضًا في قوله تعالى: { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ }{البقرة٣}: ((قال أبو علي: إذا ذكرت صفات للمدح وخولف في بعضها الإعراب فقد خولف للافتنان ، أي للتفنن الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجدّ في الإصغاء،فإن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب))[٧١].

إن هذه الظاهرة تعرف في اللغة العربية بظاهرة القطع ، والمقصود بها((مغايرة النعت للمنعوت في الإعراب،وذلك بأن يكون المنعوت مرفوعًا ونعته منصوبًا،وقد يكون المنعوت منصوبًا ونعته مرفوعًا،وقد يكون المنعوت مجرورًا فيقع نعته مرفوعًا أو منصوبًا نحو (مررت بمحمدٍ الكريمُ أو الكريمَ) .

---

[٦٨] معاني النحو ٣٧٠/١.

[٦٩] ينظر الدر المصون ٢٥١/٢ .

[٧٠] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . أبو السعود العمادي ٣٤١/١.

[٧١] م.ن ٧٣/١.

ويقع القطع في النعت كثيرًا، وقد يقع أيضًا في العطف نحو قوله تعالى: { وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ } فعطف بالنصب على المرفوع. ومثله قوله تعالى : { وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ }{النساء١٦٢} فعطف بالنصب على المرفوع ثم عاد إلى الرفع))[٧٢] .

فالقطع يلفت نظر السامع إلى النعت المقطوع أو العطف المقطوع ويثير انتباهه،وليس كذلك الإتباع،لأن الأصل في النعت أن يتبع المنعوت،كما أن الأصل في المعطوف أن يتبع المعطوف عليه،فإذا خالفت بينهما نبّهت الذهن وحرّكته إلى شيء غير معتاد.

وما أجمل تشبيه من شبّه هذه الظاهرة باللافتة أو المصباح الأحمر في الطريق يثير انتباهك ويدعوك إلى التعرف على سبب وضعه[٧٣] .

جاء في (حاشية يس على التصريح) : ((قال السعد في حواشي الكشاف : فإن قلت : ما وجه دلالة مثل هذا النصب أو الرفع على ما يقصد به من مدح أو ذم أو ترحم ؟

قلت: إن في الافتتان لمخالفة الإعراب وغير المألوف زيادة تنبيه وإيقاظ للسامع وتحريك من رغبته في الاستماع سيّما مع التزام حذف الفعل أو المبتدأ فإنه أدل دليل على الاهتمام))[٧٤] .

وعلى هذا نقول: إنه عطف (الصابرين) المنصوب على (الموفون) المرفوع وذلك للتوسع في المعنى ، فهو يفيد العطف والاهتمام بالصبر وإظهار فضله ، فالقطع يفيد ما لا يفيده الإتباع.

وهذا الكلام يقال أيضًا في قوله تعالى: { وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ }{النساء١٦٢} فهو يفيد أيضًا الاهتمام بالصلاة وبيان فضلها[٧٥].

* * *

ومن عطف الاسم المرفوع على المنصوب قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ }{المائدة٦٩} بعطف { الصابئون } على اسم إنّ .

ذكر السمين قول جمهور البصريين وهو ((أنه مرفوع بالابتداء وخبره محذوف لدلالة خبر الأول عليه ، والنية به التأخير ، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بهم . إلى آخره ، والصابئون كذلك))[٧٦]. ثم ذكر أن (

---

[٧٢] معاني النحو ١٨٧/٣.

[٧٣] م.ن

[٧٤] حاشية يس على التصريح . يس العليمي ١١٧/٢.

[٧٥] ينظر الدر المصون ١٥٣/٤.

[٧٦] الدر المصون ٣٥٣/٤ ، وينظر كتاب سيبويه ١٥٥/٢ .

الصابئون) مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله: (إن الذين آمنوا) ، ولا محل لها كما لا محل للتي عطفت عليها ، ناقلاً بذلك قول الزمخشري[٧٧].

وجاء في (الانتصاف من الكشاف) : ((ولكن ثم سؤال متوجّه وهو أن يقال : لو عطف الصابئين ونصبَه كما قرأ ابن كثير لأفاد أيضًا دخولهم في جملة المتوب عليهم ولَفُهِمَ من تقديم ذكرهم على النصارى ما يفهم من الرفع من أن هؤلاء الصابئين . وهم أوغل الناس في الكفر . يتاب عليهم فما الظن بالنصارى،ولكان الكلام جملة واحدة بليغًا مختصرًا والعطف إفرادي فلمَ عدل إلى الرفع وجعل الكلام جملتين ؟وهل يمتاز بفائدة على النصب والعطف الإفرادي ؟

ويجاب عن هذا السؤال بأنه لو نصبه وعطفه لم يكن فيه إفهام خصوصية لهذا الصنف ، لأن الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف مفردات ، وهذا الصنف من جملتها والخبر عنها واحد، وأما الرفع فينقطع عن العطف الإفرادي وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به ، ويكون خبر هذا الصنف المنفرد بمعزل تقديره مثلاً (والصابئون كذلك) فيجيء كأنه مقيس على بقية الأصناف وملحق بها وهو بهذه المثابة لأنه لما استقر بعد الأصناف من قبول التوبة فكانوا أحقّاء بجعلهم تبعًا وفرعًا مشبهين بمن هم أقعد منهم بهذا الخير)) [٧٨].

ويرى الدكتور فاضل السامرائي ((أن ثمة فرقًا في المعنى بين الرفع والنصب ، فإن العطف بالنصب على تقدير إرادة (إنّ) والعطف بالرفع يكون على غير إرادة (إنّ) ، ومعنى هذا أن العطف بالرفع غير مؤكَّد ، فعلى هذا يكون المعطوف في قولك: (إنّ محمدًا مسافرٌ وخالدًا) مؤكَّدًا ، بخلاف ما لو قلت: (إنّ محمدًا مسافرٌ وخالدٌ) فإن المعطوف غير مؤكَّد)) [٧٩].

وعلى هذا رفع (الصابئون) لأنه معطوف على غير إرادة التوكيد ، أي أن المعطوف عليه مؤكَّد بخلاف المعطوف ((وذلك أن الصابئين لما كانوا أبعد المذكورين ضلالاً .كما ذكر المفسرون . خولف في توكيدهم فكانوا أقل توكيدًا)) [٨٠].

* * *

ومن عطف الفعل المجزوم على المنصوب قوله تعالى: { رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ }{المنافقون١٠} بعطف (أكنْ) المجزومة على (أصّدّقَ) المنصوبة. وقد كان الأصل أن يقول: (فأصّدّقَ وأكونَ من الصالحين) .

ذكر السمين أن { أكنْ } معطوف على محل { فأصّدّقَ } ،كأنه قيل : إن أخرتني أصّدّقْ وأكنْ[٨١].

---

[٧٧] ينظر الدر المصون ٣٥٣/٤ ، والكشاف ٦٣١/١.

[٧٨] الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال . محمد بن المنيّر الإسكندري ٦٣٢/١.

[٧٩] معاني النحو ٣٦٧/١.

[٨٠] م.ن ٣٦٩/١.

[٨١] الدر المصون ٣٤٤/١٠ ، وينظر الكشاف ١١٢/٤.

وهو بهذا التقدير يشير إلى اتساع دلالة الآية . يقول ابن عاشور: ((فأما الجمهور فقرأوه مجزومًا بسكون آخره على اعتباره جوابًا للطلب مباشرة لعدم وجود فاء السببية فيه ، واعتبار الواو عاطفة جملة على جملة وليست عاطفة مفردًا على مفرد ، وذلك لقصد تضمين الكلام معنى الشرط زيادة على معنى التسبب فيغني الجزم عن فعل الشرط . فتقديره : إن تؤخرْني إلى أجل قريب أكنْ من الصالحين ، جمعًا بين التسبب المفاد بالفاء ، والتعليق الشرطي المفاد بجزم الفعل . . . وذلك يرجع إلى حسن الاحتباك ، فكأنه قيل: لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصّدّقَ وأكونَ من الصالحين ، إن تؤخرْني إلى أجل قريب أصّدّقْ وأكنْ من الصالحين))[٨٢].

ومعنى عبارة ابن عاشور أنه جاء بالمعطوف عليه منصوبًا على إرادة معنى السبب ، وجاء بالمعطوف مجزومًا على إرادة معنى الشرط، فجمع بين معنيي السبب والشرط والله أعلم.

* * *

ثانيًا . العطف على مقدّر غير مذكور في الكلام أو على المعنى:

وذلك نحو قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ }{الروم٤٦}فقد عطف في ظاهر الأمر{ وليذيقَكم من رحمته } على{ مبشرات } وهو لا يصح، لأن قوله: { وليذيقَكم من رحمته } بيان علة،و(مبشرات)حال،ولا تعطف العلة على الحال، ولذا قدّر بأنه عطف على المعنى،كأنه قيل:ليبشركم وليذيقكم[٨٣]. جاء في(البحر المحيط):(({ وليذيقكم } عطف على معنى {مبشرات} ، فالعامل { أن يرسل } ويكون عطفًا على التوهم ، كأنه قيل: ليبشروكم ، والحال والصفة قد يجيئان وفيهما معنى التعليل . . . وقيل: ما يتعلق به اللام محذوف ، أي: ولكنّا أرسلناها))[٨٤].

ومعنى ذلك أنه عطف في ظاهر الأمر العلة على الحال ليكسب معنيي الحال والعلة فتتسع الدلالة.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: { وَمُصَدِّقًا لما بينَ يَدَيَّ مِنَ التَّوراةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ }{آل عمران٥٠} فإن ظاهر التعبير عطف (لأحل) على (مصدّقًا) وهذا غير جائز عند النحاة ، لأن (ولأحلّ) بيان علة ، و(مصدّقًا) حال ، ولا تعطف العلة على الحال . جاء في (الدر المصون): ((قوله : (ولأحلّ) فيه أوجه: أحدها: أنه معطوف على معنى (مصدّقًا) إذ المعنى: جئتكم لأصدّق ما بين يديّ ولأحلّ لكم. ومثله في الكلام (جئته معتذرًا إليه ولأجتلب رضاه) أي: جئت لأعتذر ولأجتلب ، كذا قال الواحدي. وفيه نظر ، لأن المعطوف عليه حال وهذا تعليل))[٨٥].

---

[٨٢] التحرير والتنوير ٢٢٧/٢٨.

[٨٣] الدر المصون ٥٠/٩ ، وينظر الكشاف ٢٢٥/٣.

[٨٤] البحر المحيط ٣٩٨/٨.

[٨٥] الدر المصون ٢٠٢/٣.

وجاء في (البحر المحيط): ((واللام في (ولأحلّ) لام كي ، ولم يتقدم ما يسوغ عطفه عليه من جهة اللفظ فقيل: هو معطوف على المعنى ، إذ المعنى في (ومصدّقًا) أي: لأصدّق ما بين يديّ من التوراة ولأحلّ لكم ، وهذا هو العطف على التوهم وليس هذا منه ، لأن معقولية الحال مخالفة لمعقولية التعليل ، والعطف على التوهم لا بد أن يكون المعنى متحدًا في المعطوف والمعطوف عليه . . . وقيل: اللام تتعلق بفعل مضمر بعد الواو يفسّره المعنى ، أي: وجئتكم لأحلّ لكم . . . وقال أبو البقاء: هو معطوف على محذوف تقديره: لأخفف عنكم أو نحو ذلك)) [٨٦].

وهذا في الحقيقة من باب التوسع في معنى التركيب ((ذلك أنه عطف في ظاهر الأمر العلة على الحال فكسب معنيي الحال والعلة ، فهو بدل ان يقول: (ومصدقًا لما بين يديّ . . . وجئتكم لأحلّ لكم) ونحو ذلك قال: (ومصدقًا ولأحلّ) فكسب المعنيين معًا)) [٨٧].

* * *

ومنه قوله تعالى: { إِنّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا }{الصافات٦،٧} فإن {حفظًا} لا يصح عطفه على ما قبله ، ولذا قُدّر بما يقتضيه المعنى فجُعل مفعولاً مطلقًا لفعل مقدّر معطوف على قوله: { زينّا} أي: وحفظناها حفظًا .

ويجوز فيها وجه آخر وهو أن يكون مفعولاً له على المعنى، لأن المعنى سيكون حينئذٍ: إنّا خلقنا الكواكب زينةً للسماء وحفظًا من الشياطين .

يقول السمين الحلبي : ((قوله: {وحفظًا} منصوب على المصدر بإضمار فعل ، أي: حفظناها حفظًا ، وإما على المفعول لأجله على زيادة الواو ، والعامل فيه { زيّنّا })) [٨٨].

ومثلها قوله تعالى : { وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا }{فصلت١٢} فإنها تحتمل كلا المعنيين المذكورين آنفًا . يقول السمين: (({وحفظًا} في نصبه وجهان: أحدهما: أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر ، أي: وحفظناها بالثواقب من الكواكب حفظًا،والثاني:أنه مفعول من أجله على المعنى،فإن التقدير:خلقنا الكواكب زينةً وحفظًا)) [٨٩].

فهو إذن يحتمل المفعولية المطلقة والمفعول له، فهو بدل من أن يقول: (وزينّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظناها حفظًا ، أو وخلقناها زينةً وحفظًا) جمع كلا المعنيين بأوجز تعبير.

* * *

---

[٨٦] البحر المحيط ٤٩١/٢.

[٨٧] الجملة العربية والمعنى ١٩٤.

[٨٨] الدر المصون ٢٩٢/٩ ، وينظر الكشاف ٣٣٥/٣ ، وتفسير البيضاوي ٥/٥ ، وروح المعاني ١٠٢/٢٣.

[٨٩] الدر المصون ٥١٣/٩ ، وينظر الكشاف ٤٤٧/٣ ، وروح المعاني ١٦٠/٢٤.

وقد لا يصح أن ينسب إلى المعطوف ما نسب إلى المعطوف عليه فيقدّر له ما يناسبه نحو قوله تعالى : { وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ }{الحشر٩}فإن الإيمان لا يتبَوَّأ وإنما يُعتقَد ، فجمع معنيي التبوُّء والاعتقاد معًا، يقول السمين : ((قوله: { والإيمان } فيه أوجه: أحدها: أنه ضمّن { تبوّأوا } معنى لزموا ، فيصح عطف الإيمان عليه ، إذ الإيمان لا يُتبَوَّأ ، والثاني: أنه منصوب بمقدّر ، أي: اعتقدوا))[٩٠].

تاسعًا : احتمال الخبر والإنشاء في التعبير الواحد:

قد يحتمل التعبير الواحد أن يكون خبريًّا وإنشائيًّا كما ذكرنا في مقدمة البحث من قوله تعالى: { وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ }{الهمزة١}فقد ذكرنا أن هذا التعبير يحتمل أن يكون خبريًّا ودعائيًّا،فقد يحتمل أنه أخبر بما سيلاقونه من عقوبة في الآخرة بسبب همزهم ولمزهم، ويحتمل أن يراد الدعاء عليهم بالويل والهلاك،والمعنيان مرادان،فقد دعا عليهم بالعذاب الشديد،كما أنه أخبر بما سيصيبهم ما دعا عليهم به .

وقد يكون الخبر في معنى النهي كقوله تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ }{البقرة٨٣}. نقل السمين عن الزمخشري قوله: (((لا تعبدون) إخبار في معنى النهي، كما تقول: (تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه. وتنصره قراءة عبد الله وأُبَيّ (لا تعبدوا)))[٩١].

عاشرًا: الاتساع في معاني حروف الجر:

من المعروف أن لحروف الجر معاني متعددة، فـ(من) تأتي لابتداء الغاية وللتبعيض ولبيان الجنس ولغير ذلك، و(الباء) تأتي للإلصاق والاستعانة والسببية وغيرها من المعاني، و(على) تأتي للاستعلاء وللمصاحبة والمجاوزة والتعليل ولغير ذلك من المعاني. وهكذا بالنسبة لباقي حروف الجر.

من ذلك قوله تعالى: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }{المائدة٧٣} فقد نقل السمين عن الزمخشري قوله: إن (((من) في قوله: {لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ } للبيان كالتي في قوله تعالى: { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ }{الحج٣٠} . . . ويجوز أن تكون للتبعيض، على معنى: ليمسّنّ الذين بقوا على الكفر منهم))[٩٢].

---

[٩٠] الكشاف ٢٨٥/١٠ .

[٩١] الدر المصون ٤٦٠/١ . ٤٦١ ، والكشاف ٢٩٢/١ . ٢٩٣.

[٩٢] الدر المصون ٣٧٦/٤ . ٣٧٧، والكشاف ٦٣٤/١.

ولله الحمد أولاً وآخرًا

قائمة المصادر:

. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المعروف بـ(تفسير أبي السعود). أبو السعود محمد بن محمد العمادي . تحقيق محمد صبحي حلاّق . دار الفكر . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٢١هـ . ٢٠٠١م.

. الأعلام . خير الدين الزركلي . دار العلم للملايين . الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢م.

. الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال . محمد بن المنيّر الإسكندري . طبع بهامش الكشاف.

. أنوار التنزيل وأسرار التأويل . ناصر الدين عبد الله الشيرازي البيضاوي . تحقيق عبد القادر عرفات . دار الفكر . بيروت ١٤٠٢ هـ . ١٩٨٢م.

. البحر المحيط . أبو حيان الأندلسي . دار الفكر . بيروت ١٤١٣هـ . ١٩٩٢م.

. البرهان في علوم القرآن . بدر الدين الزركشي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية بمصر . الطبعة الأولى١٣٧٦هـ . ١٩٥٧م.

. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . جلال الدين السيوطي . تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم . مطبعة عيسى البابي الحلبي . الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ . ١٩٦٤م.

. التحرير والتنوير . محمد الطاهر ابن عاشور . مؤسسة التاريخ . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٢١هـ . ٢٠٠٠م.

. الجامع لأحكام القرآن . أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

. جامع البيان عن تأويل آي القرآن . محمد بن جرير الطبري . تحقيق وتهذيب الدكتور بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني . دار الرسالة . بيروت . الطبعة الأولى ١٤١٨هـ . ١٩٩٧م.

. الجملة العربية والمعنى . الدكتور فاضل صالح السامرائي . دار ابن حزم . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٢١هـ . ٢٠٠٠م.

. حاشية الخضري على شرح ابن عقيل . محمد الخضري الشافعي . شرح وتعليق تركي فرحان المصطفى . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى١٤١٩ هـ . ١٩٩٨م.

. حاشية الشريف الجرجاني على الكشاف . أبو الحسن الجرجاني . طبعت مع تفسير الكشاف.

. حاشية الصبان على شرح الأشموني . محمد علي الصبان . دار الفكر . بيروت.

. حاشية يس على التصريح . يس بن زين الدين العليمي . طبع مع (شرح التصريح على التوضيح) لخالد الأزهري . دار الفكر . بيروت.

. الخصائص . أبو الفتح عثمان بن جني . تحقيق محمد علي النجار . الهيئة المصرية العامة للكتاب . الطبعة الرابعة ١٩٩٩م.
. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : السمين الحلبي . تحقيق أحمد محمد الخرّاط . دار القلم . دمشق . الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ . ١٩٨٦م.
_ درة التنزيل وغرة التأويل . الخطيب الإسكافي . نشر عادل نويهض . دار الآفاق الجديدة . بيروت ١٣٩٣هـ . ١٩٧٣م.
. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . ابن حجر العسقلاني . تحقيق محمد سيد جاد الحق . دار الكتب الحديثة.
. دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني . قراءة وتعليق محمود محمد شاكر . مكتبة الخانجي بالقاهرة .
. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي . دار الفكر . بيروت.
. شرح التصريح على التوضيح . خالد الأزهري . دار الفكر . بيروت .
. شرح الكافية في النحو . رضي الدين الإستراباذي . دار الكتب العلمية . بيروت.
. طبقات المفسرين . أحمد بن محمد الأدنه وي . تحقيق سليمان بن صالح الخزي . مكتبة العلوم والحكم . المدينة المنورة . الطبعة الأولى ١٤١٧هـ . ١٩٩٧.
. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير . محمد بن علي الشوكاني . تحقيق سيد إبراهيم . دار الحديث . القاهرة.
.كتاب سيبويه . أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . مكتبة الخانجي بالقاهرة . الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م.
. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري . دار الفكر بيروت . الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
.كشف الظنون . عن أسامي الكتب والفنون . حاجي خليفة . دار الفكر . ١٤٠٢هـ . ١٩٨٢م.
. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . ابن عطية الأندلسي . تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى ١٤١٣هـ . ١٩٩٣م.
. معاني النحو . الدكتور فاضل صالح السامرائي . الجزءان الأول والثاني في مطبعة التعليم العالي في الموصل ١٩٨٦ . ١٩٨٧م ، والجزءان الثالث والرابع في مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر . بغداد ١٩٩١م.
. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب . ابن هشام الأنصاري . تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله . مؤسسة الصادق للطباعة والنشر . الطبعة الخامسة.
. مفاتيح الغيب المعروف بـ(تفسير الرازي) . الفخر الرازي . دار الفكر . بيروت . ١٤٢٣ هـ . ٢٠٠٢م.

. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل . أحمد بن الزبير الغرناطي تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد . دار النهضة العربية . بيروت ١٤٠٥هـ . ١٩٨٥م.